المحاضرة الأولى

الاحتلال البريطاني للعراق

أولاً/ أسباب الاحتلال البريطاني للعراق ومراحله :

اكتسب العراق أهمية كبرى في السياسة البريطانية، منذ بداية النشاط البريطاني في الخليج العربي في الربع الأول من القرن السابع عشر، وقد تنوعت المصالح البريطانية في العراق فهناك المصالح الاقتصادية التي تركزت على شراء المواد الأولية الرخيصة من جلود وصوف وعرق سوس وخيول وعملت بريطانيا على ربط الاقتصاد العراقي بالرأسمال الأجنبي عن طريق تأسيس عدد من الشركات البريطانية أمثال شركة لنج ومكنزي، ولم يقتصر علمها على النشاط التجاري فقط بل كان وجودها يمثل تغلغلاً استعمارياً. أما أهمية العراق الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا فتمثل في موقع العراق على الخليج العربي الذي هو جزء من طريق الهند البري الحيوي لمواصلات الحكومة البريطانية وقد أكدت هذه الأهمية بعثة جسني الاستطلاعية عام ١٨٣٤ لدراسة إمكانيات نهر الفرات الملاحية.

وفي مطلع القرن العشرين ازدادت الأهمية نتيجة لاكتشاف النفط في عبادان وكانت حماية هذه الحقول إحدى الأسباب التي تذرعت بها بريطانيا عند احتلال البصرة. وبدأت بريطانيا تهيء قواتها العسكرية للحفاظ على احتلالها للخليج العربي. وفعلاً أرسلت قواتها الى المنطقة في (٢ تشرين الأول ١٩١٤) وفي اليوم التالي اسندت قيادة القوات البريطانية الى العميد ديلامين وحدد أطار عملها باحتلال عبادان وحماية مصافي النفط. وفي يوم ٦ تشرين الثاني من العام نفسه صدرت التعليمات الى ديلامين بالتوجه الى الفاو وفعلاً نزلت قواته فيها ورفع العلم البريطاني فيها بعد مقاومة طفيفة. وفي ٢٢ تشرين الثاني احتلت القرنة من قبل القوات البريطانية وكان لاحتلالها أهمية كبيرة لموقعها العسكري ولصلاحية الملاحة.

احتشدت القوات العثمانية بقيادة سليمان عسكري ومعها قوات المتطوعين الذين عملوا العثمانيون على كسب تأييدهم عن طريق إعلان الجهاد المقدس وبدأت بمناوشة البريطانيين في (١٢ نيسان ١٩١٥) في الشعيبة وتعتبر هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ عملية الاحتلال البريطاني للعراق، وبعد هزيمة العثمانيين في القرنة والشعيبة تقهقرت قواتهم نحو العمارة والناصرية واحتلت الأولى في (٢ حزيران ١٩١٥)، كما احتلت الناصرية في (٢٥ تموز من العام نفسه) وشجع هذا الاحتلال بريطانيا على التقدم نحو بغداد وفعلاً تقدمت حملتهم باتجاه بغداد بقيادة الجنرال طاوزند وحدثت أول معركة بين الطرفين بالقرب من الكوت يوم (٢٧ أيلول ١٩١٥) انتهت بانتصار البريطانيين وانسحاب العثمانيين الذين عادوا تنظيم قواتهم وتمكنوا من هزيمة البريطانيين يوم (٢١ تشرين الثاني ١٩١٥) في المدائن واضطر البريطانيون الى الانسحاب، واستغلت القوات العثمانية الانكسار البريطاني في المدائن وتمكنت من محاصرة البريطانيين في الكوت في (٧ كانون الأول ١٩١٥) واستمر الحصار حوالي خمسة أشهر. لم يستثمر العثمانيون الهزيمة البريطانية في الكوت وإنما أرسلوا قواتهم الى إيران لمحاربة القوات الروسية مما أضعف القوات العثمانية في العراق وتمكن البريطانيين من تعزيز قواتهم لاسيما بعد أن تولى الجنرال (مود) قيادة القوات البريطانية ودارت معارك بين الطرفين اضطر على أثرها العثمانيين الى الانسحاب من الكوت الى المدائن وتمكن مود بعدها من التقدم نحو بغداد فدخلها في (١١ آذار ١٩١٧) وبعدها واصل البريطانيون تقدمهم نحو شمال العراق فاحتلوا سامراء في (٢٢ نيسان) والرمادي في (٢٩ أيلول) وتكريت في (٦ تشرين الثاني ١٩١٧) وفي الموصل جرت عقد هدنة في (٣٠ تشرين الأول ١٩١٨) وافق العثمانيون على مغادرة المدينة وهكذا انتهت الأعمال العسكرية التي استمرت زهاء أربع سنوات. وكلف هذا الاحتلال بريطانيا خسائر قدرت بحوالي مائة ألف قتيل وجريح فضلاً عن الخسائر المادية.

ثانياً/ الإدارة البريطانية في العراق بعد الاحتلال ومقاومة العراقيين لها :

دفعت حاجات الحملة البريطانية وضرورة ملء الفراغ الذي أحدثه انسحاب العثمانيين السلطة البريطانية المحتلة الى تأسيس نوع من الإدارة قامت هذه الأخيرة على الأسس التالية :

١ – العمل على تأمين الحاجات التي يتطلبها الاحتلال البريطاني بالاستيلاء على بعض الأراضي والممتلكات.

٢ – التخطيط لجعل الجزء الجنوبي من العراق مستعمرة هندية.

٣ – محاولة التقرب من العشائر لضمان ولائها للسلطة المحتلة.

٤ – العمل على إيجاد نظام إداري تتركز فيه السلطة بيد الحكام البريطانيين.

٥ – العمل على وضع نظام قضائي ومالي.

وقد ظهر واضحاً من تطبيق الإدارة البريطانية أن الهدف يقضي باحتلال البلاد نهائياً والعمل على إيجاد الصيغ لربطه بالهند. أو إعطائه نوعاً من الحكم الذاتي.

وعمدت إدارة ولسن الى إجراء ما يسمى بـ (الاستفتاء) لتزيف إرادة العراقيين وتأليف الحكومة التي تريدها بريطانيا باسمه وقد خولت بريطانيا ولسن بإجرائه في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ بين الشعب رأيه في الأمور الآتية :

١ – هل يفضلون دولة عربية واحدة تقوم بإرشاد بريطانيا وتمتد من حدود ولاية الموصل الشمالية الى الخليج العربي.

٢ – وفي هذه الحالة هل يرون أن عاهلاً عربياً أسمياً يجب أن ينصب على رأس هذه الدولة.

٣ – وإذا كان الأمر كذلك من الذي يفضلون تنصيبه رئيساً للدولة.

ومهما يكن من أمر فإن الاستفتاء تم إجرائه، إلا أنه لم يكن يمثل رأي الشعب العراقي المناهض للاحتلال فقد اختير الأشخاص المتعاونين مع السلطات البريطانية لتوقيع المضابط والمذكرات ولم يسمح بتسجيل الآراء المعارضة لوجهة النظر البريطانية الأمر الذي حال دون الإفصاح الحقيقي عن رأي البلاد.

أما الشعب العراقي المعارض للاحتلال وإدارته فقد عمد الى تنظيم نفسه للمقاومة والمطالبة بالاستقلال فظهرت بعض الجمعيات الوطنية منها جمعية العهد العراقي التي تأسست عام ١٩١٩ وتضمنت برامجها العمل على تحقيق الأهداف التالية، استقلال العراق استقلالاً تاماً ضمن الوحدة العربية، وطلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا على أن لا تمس استقلال العراق التام وإنهاض الشعب العراقي ليباري أرقى الأمم الغربية وكذلك السعي لخير الأمة العربية عامة. وأعلنت الجمعية عن رغبتها بإقامة ملكية دستورية يرأسها أحد أنجال الشريف حسين. أما الجمعية الأخرى هي جمعية حرس الاستقلال تأسست في بغداد نهاية شباط عام ١٩١٩ وتضمنت في برنامجها أمور منها استقلال العراق استقلالاً تاماً وتشكيل مملكة عراقية يرأسها أحد أنجال الشريف حسين وتوحيد كلمة العراقيين. ثم حدث خلاف بين الجمعيتين حول طلب المساعدة من بريطانيا. ولقيت الحركة الوطنية المقاومة من قبل السلطان المحتلة التي عمدت الى سياسة الشدة والعنف للوقوف بوجه الانتفاضات التي شملت مناطق العراق والتي سرعان ما تحولت هذه الانتفاضات الى ثورة شاملة ضد المحتلين الأجانب.

ثالثاً/ الحركة الوطنية والثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ :

لم تستجب بريطانيا للمطالب الشعبية بتقرير المصير، بل سارعت هي وحلفاؤها الى الاجتماع في سان ريمو في إيطاليا في (٢٥ نيسان ١٩٢٠) ووزعوا الانتدابات، فأنيط انتداب العراق وفلسطين وشرق الأردن لبريطانيا. وتضمنت لائحة الانتداب على العراق جملة من الأمور:

تضع بريطانيا في أقرب وقت، لا يتجاوز ثلاث سنين من تاريخ تنفيذ الانتداب قانون أساسياً للعراق دستوراً يعرض على مجلس العصبة للمصادقة، كما يحق لبريطانيا الاحتفاظ بقوة عسكرية في العراق لأجل الدفاع عنه. وأن تقوم بريطانيا بإدارة علاقات العراق الخارجية كما تتعهد بريطانيا بالمحافظة على وحدة الأراضي العراقية.

أذيع نبأ الانتداب على العراق في بغداد في (٣ أيار ١٩٢٠) فأعلن الشعب معارضته له، أدركت الحركة الوطنية هدف السياسة البريطانية في استمرار الحركة البريطانية المباشرة وعدم تنفيذ الوعود التي أعطيت للعرب في الحصول على الاستقلال والوحدة فقامت بتصعيد المقاومة ضد الاحتلال، وتوتر الجو السياسي في العراق وعقد زعماء الحركة الوطنية سلسلة من الاجتماعات السرية وقرروا اتخاذ التدابير لحشد العراقيين. وفي (٢ حزيران ١٩٢٠) حدثت مظاهرة جماهيرية واسعة عندما قابل ممثلوا الحركة الوطنية وكيل الحاكم المكي وطالبوا بإجابة المطاليب الآتية وهي إنشاء مجلس تأسيسي (جمعية وطنية) تضع دستور وتقرر شكل الحاكم وكذلك إطلاق حرية الصحافة. وقد ردت بريطانيا على هذه المطاليب موضحة شروط وكالة حكومة بريطانيا على العراق وأصبح الوضع لا يعوزه غير الشرارة لإشعال نار الثورة التي أصبحت منتشرة في مناطق العراق المختلفة، وكان اعتقال الشيخ شعلان أبو الجون شيخ قبيلة الظوالم في (٣٠) حزيران في الرميثة أحد الأسباب التي أدت الى اندلاع الثورة إذ هاجم رجاله سراي الحكومة وقتلوا بريطانيين وانقذوا شيخهم فكانت تلك الرصاصات إيذاناً بإعلان الثورة في العراق ضد البريطانيين.

امتدت الثورة بسرعة الى مناطق العراق المختلفة، فأعلنت الثورة في النجف في (٢ تموز) ورفع علم الثورة العربية على سراي الحكومة وتمكن الثوار في الرميثة من مقاتلة البريطانيين وفي الشامية استطاع الثوار السيطرة على المدينة وتمكن الثوار من إحراز نصر كبير في موقعة الرارنجية (الرسمتية) قرب الكفل يوم (٢٤ تموز) فاضطرت القوات البريطانية الى التقهقر نحو الحلة بعد أن فقدت (٣١٨) جندياً، وغنم الثوار (٤٠) رشاشاً ومدفعاً واحداً.

وفي مناطق العراق الأخرى، عمد الثوار في السماوة الى تدمير سكة الحديد لعرقلة إرسال النجدات للقوات البريطانية، كما تمكنوا من إسقاط طائرة تحطمت وقتل قائدها. وفي الكوفة هاجم الثوار الباخرة البريطانية فابر افلاي. وفي الرمادي اهتز موقف البريطانيين واستطاع الشيخ ضاري ورجاله في (١٢ آب) من قتل الكولونيل

لجمن حاكم لواء الدليم السياسي. وفي ديالى تمكن الثوار من تعطيل سكة الحديد بين بغداد وخانقين وامتدت الثورة الى كركوك وأربيل والموصل والسليمانية وأصبحت بغداد شبه محاصرة بعد أن وصل الثوار قرب المسيب.

خفت حدة المعارك العسكرية بعد فترة قصيرة من وصول السير برسي كوكس واعتبرت الثورة منتهية بعد المفاوضات التي أجرتها بريطانيا مع الثوار في الرميثة آخر معاقل الثورة وتوقيعها الاتفاق معهم في (٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠) تعهدت فيه بريطانيا أن تكون للعراق حكومة عربية مستقلة وعدم مطالبة الثوار بالخسائر التي لحقت ببريطانيا مع الإعفاء من الضرائب لسنة الثورة على أن يتعهدوا بتوطيد الأمن والنظام في مناطقهم وأن يسلموا الحكومة البريطانية ألفين وأربعمائة بندقية.

وفي تقويم الثورة لابد من القول أنها ثورة وطنية وقومية هدفها الحصول على الاستقلال التام وتشكيل دولة عراقية مستقلة، وشاركت فيها جماهير واسعة مثلت مختلف فئات الشعب وكانت لها صحافة عبرت عن أهدافها مثل جريدة الفرات والاستقلال.

وحاول البريطانيون التقليل من شأن الثورة ونظروا إليها على أنها قلاقل واضطرابات قامت بها العشائر ضد السلطة المحتلة متجاهلين الدوافع الحقيقة للثورة ... وكانت الثورة بالنسبة للعراقيين حرباً وطنية من أجل الاستقلال برهنت على قوة العمل الوطني الموحد في تحدي حكومة بريطانيا وكبدت الأخيرة الكثير من الخسائر المادية والبشرية وقد قدرها الجنرال هالدين الخسائر البشرية بـ(٢٢٦٩) إصابة. أما الخسائر المادية فقد قدرت ب(٢٠ – ٤٠) مليون من الجنيهات الإسترلينية.

رابعاً / الحكومة العراقية المؤقتة :

لم يكن قرار السلطات البريطانية بتشكيل الحكومة المؤقتة إلا نتيجة لاستمرار الانتفاضات الشعبية ضد الاحتلال التي بلغت ذروتها في ثورة العشرين، فعد وصول بيرسي كوكس الى بغداد في (١١ تشرين الأول ١٩٢٠)، الذي وصف بأنه الشخص

الأمثل من وجهة النظر البريطانية فأجرى مشاورات واسعة مع بعض الشخصيات العراقية ورجال الإدارة البريطانية في العراق. وبعد أن حصل كوكس على التأييد لآرائه رشح عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد لتولي رئاسة المجلس لمركزه الديني. وكان النقيب معجباً بشخصية بيرسي كوكس.

استطاع كوكس إقناع النقيب تولي رئاسة المجلس وكان كوكس قد قرر تأليف مجلس يضم رئيساً وثمانية وزراء يكون كل منهم على رأس وزارة من وزارات الدولة ومع كل وزير مستشار بريطاني مع عشرة وزراء بلا وزارة لضمان تمثيل مناطق العراق المتعددة.

وهكذا تم تشكيل الوزارة النقيبة الأولى التي عقدت اجتماعها الأول في دار النقيب يوم (٢ تشرين الثاني ١٩٢٠). ثم أصدر المندوب السامي برسي كوكس بياناً في (٨ تشرين الثاني من العام نفسه) أوضح فيه أن الهدف من تأليف الحكومة هو الاسراع في تمهيد الطريق أمام الشعب العراقي لإبداء الرأي في شكل الحكومة التي يريدها عن طريق تأليف مؤتمر عام يمثل الشعب العراقي تمثيلاً صحيحاً.

وحدد كوكس صلاحيات الحكومة المؤقتة في مذكرة اعتبرت أن مهام كل وزير يعتبر رئيساً لدائرة من دوائر الدولة ومسؤولاً عن إدارتها. وقامت الحكومة المؤقتة بتقسيم العراق الى وحدات إدارية وتعيين موظف عراقي لكل وحدة إدارية وعلى الرغم من تشكيل الحكومة إلا أنها لم ترضي طموح العراقيين الذين يطالبون بالاستقلال التام لذلك نظروا أليها بعين الشك وازدادت الانتقادات للبريطانيين ولخططهم في العراق.

المصادر الساندة :

١ – فاضل حسين، تاريخ العراق المعاصر، بغداد، ١٩٨٠.
٢ – محمد حمدي الجعفري، بريطانيا والعراق حقبة من الصراع ١٩١٤ – ١٩٥٨، بغداد، ٢٠٠٠.